

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا وحبيب قلوبنا أبي القاسم المصطفى مُحَمَّد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلَتِهِ)

معاني الشاكلة وتأثيراتها على السلوك الإنساني

(١)

قال الله العظيم في كتابه الكريم: (قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)^(١).

البحث يدور حول الشاكلة الإنسانية على ضوء هذه الآية الشريفة، ومحاور البحث هي: ما هي الشاكلة؟ مناشئ الشاكلة، أنواع الشاكلة، الموقف تجاه الشواكل المختلفة، تحديد الأدوار والوظائف على ضوء الشواكل، الشاكلة بعد الشاكلة، تداخل الشواكل.

المبحث الأول: تعريف الشاكلة

(الشاكلة) مأخوذة من الشَّكَل بالفتح أو من الشَّكَل بالكسر والشَّكَل بالفتح له معنيان:

المعنى الأول: التقييد، يقال مثلاً: شَكَلْتُ الدابة أي قيّدتها وربطت رجلها مثلاً، كما يقال شكلت الكتاب أي أعجمته أي قيّدته بالإعراب ووضعت عليه الحركات (كي لا يسترسل الجاهل فيقرأه كما شاء) والشَّكَال بالكسر هو عقال الدابة وشدّ قوائمها بالحبل.

والشاكلة بهذا المعنى تعني الكوابح والقيود الداخلية التي تمنع الإنسان من ان يقول شيئاً أو يمارس فعلاً أو يتخذ موقفاً أو يعتنق مذهباً أو غير ذلك.

فهل الآية الشريفة تعني ذلك؟ أي ان كل شخص يعمل حسب شاكلته النفسية وكوابحه الداخلية وان الحواجز والقيود والموانع الذاتية هي التي توجه حركته واعماله فيسير في طريق معين مرسوم سلفاً وهو ذلك الطريق المشرع أمام النفس مقابل البدائل الأخرى المغلقة في وجهه.

المعنى الثاني: الشَّبه والنظير، كما قال تعالى: (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَأَخْرُ مِنْ شَكَلِهِ

(١) سورة الإسراء: آية ٨٤.

أَزْوَاجٍ^(١) أي نوع آخر من العذاب الإلهي مشابه للعذاب الأول، فقله تعالى (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) يعني على حسب سنخه أي ان عمله مناظر لشخصيته ومشابه لها، فان الجوارح إنما تنسج على طبق الجوانح، وان الظاهر حاكٍ عن الباطن، وان العمل مظهر والشاكلة هي المخبر، فالشاكلة النفسية تدفع الإنسان باتجاه أعمال وأفعال ومواقف وقرارات مشابهة لها ومساخرة ومتجانسة معها.

كما يحتمل في الشاكلة ان تكون مأخوذة من الشَّكْل بالكسر، وهذه هو المعنى الثالث:

فان الشكل يعني الهيئة، وعليه: فان (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) يعني على حسب هيئته النفسية، أي على حسب صورته المحسوسة أو المتوهمة.

وعلى ذلك كله فان (الشاكلة) تستبطن المعاني الآتية: الطبيعة، الخليقة، السجية، الملكة، الحالات النفسية، المزاج، البنية، المذهب والطريقة ولذا يقال طريق ذو شواكل أي تتشعب منه عدة طرق والشواكل من الطرق ما انشعب من الطريق الأعظم.

الشاكلة الجسدية ودلالاتها

ولقد تطرّف بعض العلماء حيث ارتأوا بان (الشاكلة) تعني أو تشمل الشاكلة الجسدية وان أعمال الإنسان وليدة خصوصياته الجسمانية.. وسيأتي الكلام عن نظرية هؤلاء.. بل لقد تطرف بعضهم أكثر عندما ارتأى بان الخصوصيات الجسدية هي دلائل وعلائم أكيدة على شخصية الإنسان.. ومن الغريب جداً في هذا الحقل ما ذهب إليه الفخر الرازي في كتاب الفراسة من التحليل للشخصيات على حسب سمات الوجه فقد ذهب إلى تحليل الشخصية حسب شكل الجبهة: من كان مقطباً لجبهته مائلاً إلى البسط فهو غضوب! من كانت جبهته صغيرةً فهو جاهل! من كانت جبهته عظيمةً فهو كسلان وغضوب! من كانت جبهته كثيرة العضوية فهو صلف. من كانت جبهته منبسطةً لا غضون بها فهو مشاغب!

وذهب إلى تحليل الشخصية حسب شكل الحاجب: الحاجب الكثير الشعر يكون صاحبه كثير الهم والحزن، غثّ الكلام، وإن كان حاجبه يميل من ناحية الأنف إلى أسفل ومن ناحية الصدغ إلى فوق، فإنّه صلف أبله!

وذهب إلى تحليل الشخصية حسب شكل العين: من عظمت عينه فهو كسلان! من كان عيناه جاحظتان فهو جاهل مهذار! من كانت عيناه غائرتان فهو خبيث! من كانت عيناه غائرتان قليلاً فنفسه

(١) سورة ص: آية ٥٧ - ٥٨.

نبيلة! من كانت حدقته شديدة السواد فهو جبان! إذا كانت العين حمراء مثل الجمر فصاحبها غضوب مقدام! من كان لون عينيه أزرقاً أو أبيضاً فهو جبان! من كانت عيناه بلون الشراب الصافي فهو جاهل! من كانت عيناه بارزتان فهو وقح! من كانت عيناه موصوفتان بالصفرة والاضطراب فهو جبان! من كانت عيناه زرقاء كنتك التي تكون في زرقتها صفرة كأنها صبغت بالزعفران، فإنها تدلّ على رداءة الأخلاق! - انتهى.

تعريفات علماء النفس للشاكلة

وقد يقال: ان (الشاكلة) هي نفس (الشخصية) بالمعنى العرفي وبشكل أكثر دقة هي نفس (الشخصية) حسب مصطلح علماء النفس.

وقد عرّفها علماء النفس بأكثر من أربعين تعريفاً ننتخب منها أربعة:

أولاً: (الشخصية: هي مجموعة من الصفات الجسدية والنفسية الموروثة والمكتسبة ومجموعة من القيم والتقاليد والعواطف)

و(القيم) مثل قيمة العدالة والرحمة والإحسان وغيرها فمن شاكلته النفسية الرحمة والإنسانية فان تعامله مع الفقراء والمساكين والأيتام والضعفاء بشكل عام يكون على نحو مختلف تماماً عمن تشكل القسوة والظلم شاكلته النفسية ولذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام المظهر الأسمى للشاكلة الإنسانية النموذجية حيث تكشف عن ذلك الألف من كلماته ومواقفه التي تفيض إنسانية ونبلاً ورحمة ولطفاً، ويكفي ان نشير إلى قوله عليه السلام

مَا إِنْ تَأَوَّهْتَ مِنْ شَيْءٍ رُزِئْتُ بِهِ كَمَا تَأَوَّهْتَ لِلْأَطْفَالِ فِي الصِّغَرِ
قَدَمَاتٍ وَالِدُهُمْ مَنْ كَانَ يَكْفُلُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ وَفِي الْأَسْفَارِ وَالْحَضَرِ^(١)

ونجده يصرح تصریحاً قد لا يهضمه أبداً من ليست شاكلته النفسية الرحمة والرقّة والإحسان ((وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةَ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقَلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرِعَائَهَا مَا تَمْنَعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انصَرَفُوا وَافْرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلِمٌ وَلَا أَرِيْقَ لَهُ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا بَلْ كَانَ عِنْدِي بِهِ جَدِيرًا...))^(٢)،

(١) قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح، مؤسسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف - قم، ١٤٠٩ هـ، ج ٢ ص ٥٤٤.

(٢) ثقة الإسلام الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ج ٥ ص ٤.

فمجرد سماع مثل هذا الخبر يكفي في منظار إمام الإنسانية الخالد لكي يتمزق الإنسان أماً حتى يموت كمدأ.

ثانياً: (الشخصية: هي المجموع الكلي للأنماط السلوكية الظاهرة والكامنة المقررة بالوراثة والمحيط)

ثالثاً: (الشخصية : هي مجموع المفاتيح التي تقرر متى يستجيب الفرد وكيف يستجيب و نوع الاستجابة)

رابعاً: (الشخصية : هي تلك السمات والانساق الفردية الثابتة نسبياً و التي تبلورت عبر الزمان على شكل نمط يميز الفرد عن غيره).
وسياقي الحديث عن الكثير من مفردات هذه التعاريف بإذن الله تعالى.

بين المدرسة البيولوجية والمدرسة السلوكية

ولقد اختلف العلماء في محددات السلوك الإنساني إلى مدارس، أبرزها مدرستان - وستأتي في الدروس اللاحقة بعض المدارس الأخرى - : وهما المدرسة البيولوجية، والمدرسة السلوكية.

اما **المدرسة البيولوجية** فهي التي ترى ان المحدد الرئيس للسلوك الإنساني ولصناعة شخصيته هو المورثات أو الجينات الوراثية والوراثة ولا تأثير لعوامل التربية والبيئة وغيرها في صناعة الشخصية، وتعتبر دراسة حالة التوائم من أقوى أدلتهم على ذلك.

ويرى هؤلاء انه كما ان الجينات الوراثية هي المسؤولة عن تحديد لون العين والبشرة وشكل الإنسان وحجمه ومختلف أجهزة بدنه فكذلك هي المسؤولة عن شاكلته النفسية وشخصيته السيكلوجية، واما الاعتراض بان الأبناء كثيراً ما لا يحملون مواصفات الآباء الجسدية، فكيف بالنفسية، إذ نرى كثيراً من الأبناء يمتلكون لوناً أو شعراً أو هيكلأً يختلف تمام الاختلاف عن آباءهم فقد تكون عيونهم زرقاء أو عسلية وعينا الأبوين سوداء مثلاً، فقد أجابوا عنه بان ذلك من الطفرة الوراثية وان أحد أجداده كان يحمل تلك الصفات فانقلت عبر قفزة وراثية لبعض الأحفاد.

اما **المدرسة السلوكية** فتري ان البيئة لها اليد الطولى في بناء الشخصية^(١) وانها نتاج التفاعل بين الفرد وبيئته..

ومن الواضح ان وجه الخطأ الأساس في هذه النظريات هو تطرفها وعدم اعتدالها وهو نظرهما الاحادية

(١) وماذا عن التربية؟

غير الموضوعية للعوامل المؤثرة في بناء الشخصية، فان كل تلك العوامل وغيرها مما سيأتي تؤثر بدرجة ما، بنحو المقتضي لا العلة التامة، وقد يتم تحييد تأثيرها بطرق مختلفة سيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

مدرسة الطبع ومدرسة التطبع

ولقد جرى بحث طويل متشابك الأطراف بين أنصار مدرسة الطبع وأنصار مدرسة التطبع في ان الفيصل الأخير هو الطبع أم التطبع؟ والغلبة، في المنعطفات الأخيرة لمن؟ وقد استدل أنصار مدرسة اصالة الطبع وحاكميته بقول مطلق، بأمثال القصة الآتية:

قضية القلط المدربة على حمل الشموع

وهي ان ملكاً كان من أنصار مدرسة التطبع وانه الحكم النهائي والفيصل لدى تزامم الطبع والتطبع وكان وزيره الحكيم من أنصار مدرسة الطبع وكان الملك يرتأي تغيير طباع أهل مملكته بقسرهم على التطبع بصفات مضادة (ولنفرض انهم كانوا كرماء مضيافين بالطبع فأراد قسرهم على التطبع بالبخل وكراهة الضيوف ريثما يتحول التطبع إلى طبع غالب، أو لنفرض العكس من ذلك).

وحيث احتدم النقاش بين الملك ووزيره ولم يصلا لوجهٍ مقنع للطرفين، ارتأى الملك الاستعانة بسلاح التجربة التجسيدية.. وتفتق ذهنه عن التجربة التالية: فقد كلف بعض الخبراء (من السيرك) بتربية مجموعة ققط على حمل الشموع والوقوف بأدب واحترام على جانبي قاعة الطعام، فقام المدرب، ولأشهر متوالية، بتدريبها على ذلك بل وعلى الأكثر من ذلك حيث درّبها على ان تقف على طرفي القاعة حاملةً الشموع المضاءة.. ثم إذ فرشت المائدة الملكية وسط القاعة درّبها على ان تقترب ببطء من المائدة وتقف على طرفيها بهدوء من دون ان تمس شيئاً من الأطعمة.. وعندما اكتمل التدريب دعى الملك وزيره للقاعة لكي يرى الققط المدربة مصطفة على جانبي القاعة حاملة بأيديها الشموع، ثم أثار دهشته أكثر عندما بسطت المائدة واقتربت الققط بهدوء شديد نحو المائدة.. وهنا قال الملك للوزير: ألا ترى البرهان الواضح على ان التطبع يغلب الطبع؟

ولكن الوزير كان ذكياً حقاً فقال للملك امهلي يوماً.. وأعد التجربة غداً ظهراً.. فوافق الملك.. وجاء الوزير في الغد ومعه مساعده وهو يحمل كيساً مغلقاً بإحكام.. وطلب من الملك تكرار التجربة فأمر الملك المدرب باصطحاب الققط فوقفت مؤدبةً على طرفي القاعة.. ثم لما فرشت المائدة اقتربت بهدوء ووقفت حوالها.. وهنا قال الوزير للملك أتاذن لي بان أقوم بتجربة طريفة تكشف عن بطلان نظريتك؟ فقال الملك

– وهو واثق تماماً – أفعل ما يحلو لك.. وهنا أشار الوزير إلى مساعده ففتح رأس الكيس فقفزت منه مجموعة من الفئران المدعورة في وسط القطط فما كان من القطط إلا ان ألقى الشموع كالبرق الخاطف وانشغلت بمطاردة الفئران المدعورة.. وهنا ابتسم الوزير قائلاً: أرأيت أيها الملك كيف غلب الطبع التطبع؟ ولكن الذي نراه ان الرسالة في هذه القضية خاطئة (سواء أكانت قصة واقعية أم قصة رمزية) وذلك لأن التفصيل هو الأصح فان الطبع قد يكون راسخاً وقد لا يكون راسخاً، بل ان الرسوخ على درجات، وكذلك التطبع فانه على درجات متفاوتة جداً فقد يغلب الطبع التطبع وقد ينعكس الأمر وقد يتساويان، ولذلك تفصيل يأتي لاحقاً بإذن الله تعالى.

من ثمرات مبحث الشاكلة: رسم المسار وكشف المستقبل

ثم ان تحديد شاكلة الإنسان النفسية وشخصيته الحقيقية، يعد أكثر من ضرورة كي يحدد الشخص موقفه من الأدوار التي يجب ان يضطلع بها أو الوظائف والمناصب التي يجب عليه ان يتقلدها، كما ان معرفة الشاكلة تساعده على ان يحدد موقفه في مرحلة تخطيطه لبناء مستقبل أولاده أو تلامذته أو موظفيه وأتباعه، بل وبرسم له من البدأ مسار اختيار موظفيه وأعوانه سواء أكان في شركة أم في منظمة أم غير ذلك.

ولنذكر لذلك بعض الأمثلة من نماذج الشخصيات المختلفة:

فان من كان عجولاً أو غضوباً في شاكلته النفسية، فان من غير الصحيح أبداً أن يصبح قاضياً أو حتى طبيباً، خاصة في بعض التخصصات التي تحتاج إلى صبر ودقة وأناة كحقل العمليات الجراحية الدقيقة وغيرها.

ومن كانت شاكلته النفسية العدوانية وقسوة القلب، فانه لا يصلح أبداً لأن يكون وزير الداخلية أو الخارجية بل حتى وزير الإعمار أو الزراعة أو وزير التعليم مثلاً ولا يصلح لأن يكون مسؤولاً في منظمات الإغاثة وشبه ذلك.

ومن كانت شاكلته النفسية الشهوانية وسيطرة القوة الشهوية عليه، فانه لا يصح له أبداً ان يعمل كصائغ، حيث يكثر التعامل مع النساء، أو ان يعمل في المؤسسات الإنسانية التي يكون فيها على تماس مباشر مع النساء، كالمنظمات التي تهتم برعاية الأيتام والأرامل وشبه ذلك.

ومن عرف من شاكلة نفسه الانتهازية والطمع والأثرة، عليه ان يتجنب تماماً الخوض في غمار السياسة فان المناصب تزل قدم العقلاء الحكماء فكيف بمن تدعوه شاكلته النفسية للأثرة والانتهازية وشبه ذلك؟

وللبحث صلة بإذن الله تعالى.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين